

الخصائص الدلالية والبلاغية للقسم القرآني

الأستاذ: خاين محمد

كلية الآداب واللغات بجامعة الشلف - الجزائر -

قصدوا مجرد الخبر أتوا بالجملة الفعلية، وإن أكدوا فبالاسمية ثم بأن، ثم بها وباللام، وقد تؤكد الفعلية بقد، وإن احتيج بأكثر جيء بالقسم مع كل من الجملتين "(3)".

أما الفقهاء فيستعملون مصطلح "اليمين" للدلالة على القسم، والقسم عندهم: "تحقيق أمر غير ثابت ماضيا كان أو مستقبلا نفيا أو إثباتا، ممكنا أو ممتنعا، صادقة أو كاذبة مع العلم بالحال أو الجهل به" (4).

من الفروق الملاحظة بين تعريفات اللغويين والفقهاء للقسم، أنه يكون بالله أو بغيره عند اللغويين، أما عند الفقهاء فالقسم لا يكون إلا باسم من أسماء الله سبحانه وتعالى أو صفة من صفاته. ومن هذه الفروق أيضا غلبة تسمية "القسم" في الاستعمال عند علماء اللغة، وغلبة

تعددت تعريفات علماء اللغة للقسم، وإن كانت كلها تقريبا تصب في معنى تأكيد الخبر وتقويته، والحث على تصديقه، إذ ذهب سيبويه إلى أن القسم: "توكيد لكلامك. فإذا حلفت على فعل من غير منفي لم يقع لزمته اللام و لزمت النون الخفيفة أو الثقيلة في آخر الكلمة. و ذلك قولك: و الله لأفعلن⁽¹⁾ ومن بين تعريفاته ما ورد عن صاحب البرهان: "و القسم لفظه لفظ الخبر، ومعناه الإنشاء، والالتزام بفعل المحلوف عليه أو تركه، وليس بإخبار عن شيء وقع أو لا يقع، وكان لفظه المضي أو الاستقبال وفائدته تحقق الجواب عند السامع وتأكيده ليزول عنه" (2).

ويقول التنوخي معلقا على قيمة القسم في تأكيد الكلام وأهميته: " إذا

تسمية " اليمين " عند الفقهاء.

وبما أن هذه الورقة البحثية غايتها البحث في الوظائف الدلالية و البلاغية في القسم القرآني، فإننا سنتجنب الخوض في المسائل النحوية المتعلقة بالقسم إلا ما جاء منها عرضاً أثناء تجلية تلك الوظائف.

1- طبيعة القسم القرآني :

أجمع اللغويون على أن القسم من مؤكدات الخبر، وهذا ما يفسر وروده في مواطن كثيرة من القرآن الكريم، حتى إنه يمكن لنا اعتباره ظاهرة بارزة مثيرة للبحث، الأمر الذي أغرى الكثير على استكناه سره واستنطاق معانيه ودلالاته، ومن جملة الإشكاليات المثارة :

ما حكمة الله سبحانه وتعالى من توظيف القسم ؟ وما آثار اهتمامهم أكثر قسمه بمخلوقاته كالملائكة والإنسان والسماء والقمر والنجم، وغيرها من ظواهر الكون وتحليلات الزمان !.

و مما أسال الكثير من الخبر على وجه الخصوص مسألة كثرة القسم في القرآن المكي عنه في القرآن المدني، حيث إننا نجده واردا في ثمانية وخمسين موضعا

في القرآن المكي من مجموع الأقسام التي تصل إلى ثلاثة وسبعين قسما صريحا. ومما يسترعي الانتباه كذلك أن القسم غير الصريح (المقدر) أكثر شيوعا من القسم الصريح، إذ يرد فيما يزيد عن المائتين والخمس والتسعين آية، ويتعدد أحيانا في الآية الواحدة فنجد فيها قسمين أو ثلاثة، كما في قوله تعالى : ﴿فَلَا قُطْعَانَ أَيْدِيكُمْ وَأُزْلُمَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأُصْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَنُغْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾⁽⁵⁾، وهذا النوع يتوصل إليه بالقرائن العقلية واللفظية. ونشير إلى أننا أهملنا إدماج المختلف في شأنه ضمن ثانيا هذا البحث، ومنه: ما قاله النحاة عن الجملة الفعلية المسبوق فعلها الماضي بـ " قد " إن كانت جوابا لقسم محذوف أم لا ؟ و الاسمية المقرونة بـ " اللام المؤكدة " ⁽⁶⁾. فالقسم من الأساليب التي يشيع فيها الحذف، وهذا ما نلاحظه في القسم القرآني، وقد علل علماء اللغة ذلك بكثرة الاستعمال وطول الكلام⁽⁷⁾.

وذهب آخرون إلى تحليلات وتأويلات ترجئ بسط الكلام فيها إلى حينها، ومن الأمور الملاحظة كذلك استفتاح السور بالقسم، وهذا يحمل من الدلالات ما لا يخفى إذ يرشد إلى قيمة القسم، وعظمة

الجاه إلى اليمين ؟ قالها ثلاثا ثم مات⁽¹⁰⁾

آخرون : الجواب، إن ذلك لحق، أما ابن القيم فقد زعم بأن "بل" جاءت بمعنى "إن" في تأكيد الخبر، وأن هذا النظم لم يعرف في العربية قبل البلاغة القرآنية، فهو يرى أنه من الوارد أن يكون هذا ما أحدثه الله عز وجل⁽¹⁸⁾ ويحتج لاجتهاده بما جاء به أبو القاسم الزجاج من أن النحويين يرون بأن "بل" تقع في جواب القسم كما تقع "إن" لأن المقصد منها تأكيد الخبر، وأن هذا الرأي قد أيده أبو حاتم ورواه الأخفش عن الكوفيين⁽¹⁹⁾.

و هو الأمر الذي يجيز لنا القول إن كل متأول أعمل فكره في تقدير الجواب وفي هذا اجتهد - ولن يعدم المجتهد أجره - ولذة في البحث، وبلاغة في الكلام، وتفخيم للمقسم به وإعظام له واختصار. والقسم القرآني نوعان : بذات الله وبمخلوقاته، وفيما يلي من الصفحات تفصيل هذين النوعين.

1-1 - القسم بذات الله :

ورد القسم باسم من أسماء الله تعالى أو صفة من صفاته أربعاً وأربعين مرة، وفي صورتين: الصادر من الله تعالى، والجاري على السنة عباده. أما النوع الأول فقد

كما شغلت ظاهرة الحذف لبعض أجزاء القسم بال العلماء، فعملوا على استخراج دلالاته، ومما توصلوا إليه أن الحذف في هذه المواطن يحقق أبعاداً إبداعية وبلاغية منها :

1- لفت الانتباه إلى مواضع العبرة، وإرادة تعظيم المقسم به أو تكريمه.

2- زيادة لذة وذلك بعمل الذهن على استنتاج المحذوف، إذ إنه كلما كان الشعور بصعوبة الوصول إلى المحذوف، كان الالتذاذ أشد وأعظم.

3- البحث عن الاختصار، وتحصيل المعاني الكثيرة في اللفظ القليل، وهو ما يعبر عنه لسانياً بـ "الاقتصاد اللغوي".

4- موقعه في النفس المتلقية، وهو ما عبر عنه عبد القاهر الجرجاني بقوله : "ما من اسم حذف في الحالة التي ينبغي أن يحذف فيها إلا وحذفه أحسن من ذكره"⁽¹⁶⁾.

ولنا أن نستدل على المعاني المذكور أنفاً بقوله تعالى : ﴿صَ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾⁽¹⁾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ⁽²⁾ كَذَّبْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَوْلَا جَيْنَ مَنَاصٍ⁽³⁾ (17). الجواب هنا محذوف لطول الكلام، وتقديره: لأعذبهم على كفرهم، وقال

من فضح أساليب هؤلاء الناس حتى لا ينخدع المؤمنون ويصدقوا هذه الأيمان الكاذبة وفيه فوق هذا تعظيم للمقسم به ودليل رفعة وقداسة.

1-2 - القسم بمخلوقات الله:

ما تجب الإشارة إليه أولاً هو اتفاق العلماء على أن القسم بالمخلوقات أمر اختصه الله لنفسه، ولم يباح لأحد من عباده، حيث حرم الحلف بغير الله، وعده كفراً وشركاً⁽³¹⁾. ولهذا السبب راحوا يبحثون على الدواعي والدلالات التي يحملها هذا القسم، ومن جملة ما توصلوا إليه في الحلف بغير الله الذي تُلحظ فيه معارضة ظاهر الكتاب لما ورد في الأثر، إذ إن الله سبحانه وتعالى أقسم في الكتاب بالسماء والنجم والملائكة والخيال.... الخ.

1- أن المقسوم به وهو الله تبارك وتعالى والتقدير: ورب السماء، ورب النجم، ورب التين.

2- نزول القرآن على ما تعرف العرب، إذ إنهم كانوا يعظمون هذه الأشياء، ويقسمون بها.

ورد في سبعة مواضع، هي: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ﴾ الذاريات: ٢٣، ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعِنُنَّ﴾ التغابن: ٧، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ مريم: ٦٨، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلَنَّهِنَّ أجمعِينَ﴾ الحجر: ٩٢، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ النساء: ٦٥، ﴿فَلَا أَقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ المعارج: ٤٠.

أما الباقي فغالبا ما نجده يجري على السنة الكافرين والمنافقين، وهو عبارة عن أيمان كاذبة يتخذها هؤلاء درعا يتقون بها غضب المؤمنين. و نلاحظ مثل هذا القسم خاصة في القرآن المدني، حيث يرد مثلاً في خمس آيات من سورة التوبة، ومنها: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ التوبة: ٤٢، ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ التوبة: ٥٦، ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ ليرضوكم وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يرضوه﴾ التوبة: ٦٢.

ونجده في سور مدنية أخرى إشارة إلى هذا الصنف من البشر الذي اتخذ القسم غطاء لمينه وكذبه، ممن لم يرعوا لاسم الله حرمة: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ النور: ٥٣ وكانت الغاية

السبع. ويرى هذا الفريق أن هذا القسم، نظير قوله له عليه السلام: ﴿لَيْنَ أَشْرَكَ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الزمر: ٦٥ وذهب آخرون إلى أن قسمه بحياة النبي ﷺ يحمل دلالة تعظيم وتمييز له، إذ لم يقع لنبي ولا لرسوله قبله، وحتى يعرف الناس قدره، وفي ذلك تعزيز لمكانته بين البشر⁽³⁶⁾. و تثبت لفوائده.

وعن قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقِيمَ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ ٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ٣٩ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ ٤٢ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿الحاقة: ٣٨ - ٤٣﴾، يرى أحدهم أننا بإزاء قسم منفي، وذلك بعد أن يشير إلى الظروف المحيطة بهذا القسم والتمثلة في كون السورة مكية، والغاية منها حمل مشركي مكة على نبذ الأوثان وتوحيد الله، والتصديق بالرسالة المحمدية. إن القسم في هذه الآية ذو دالتين؛ الأولى منهما: كونه قسما، والقسم قادر على شد الانتباه، بإشعاره بقيمة الأمر المقسم عليه، والدلالة الثانية: كونه منفيًا، وهو أسلوب - يراه صاحب هذا الطرح - يكاد يكون جديدا على الذوق العربي آنذاك، وبالتالي

3- اهتمام العرب بالكلام المبدوء بالقسم و إصغائهم إليه وبالتالي التفكير فيه، ومن ثمَّ الاهتداء إلى الحق.

4- القسم يكون بالمعظم وبمن هو أعلى، والله تعالى ليس فوقه شيء، لذا أقسم تارة بنفسه وتارة بمصنوعاته لأنها تدل على قدرته في الخلق.

5- لفت النظر إلى مواضع العبرة في الأشياء المقسم بها، والحث على تأملها للوصول إلى وجه الصواب⁽³²⁾ فيها. وفي الصفحات الموالية، نحاول مقارنة الدلالات التي يحملها القسم بالمخلوقات، والتي يمكن حصرها في : الإنسان، الملائكة، الظواهر الكونية، الخيل، القلم، القيامة.

1-2-1 - القسم بالإنسان :

جاء في الأثر أن ابن العباس استدل على فضل البشر بقسمه سبحانه وتعالى بحياة رسوله ﷺ حينما قال: "لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ"⁽³³⁾. وقد وجد من عارض هذا الاستدلال بأن الباري - سبحانه وتعالى - لم يقسم بحياة نفسه، وأقسم بالسماء والأرض، وهذا لا يدل على أنهما أرفع قدرا من العرش والجنان

دلالات نفسية عقلية منطقية، إذا سلمنا بأن القسم في هذا المقام منفي ذلك أن في القدامى من رأى في "لا" أنها جاءت للتأكيد لوقوعها بين الفاء و معطوفها وقيل : زيدت توطئة لنفي الجواب، أي : لا، أقسم (41)، والتقدير هنا أيضا "لأقسم" أو "لأنا أقسم" وكلها آراء وجيهة.

1-2-2 - القسم بالملائكة :

ورد القسم بالملائكة في مفتتح ثلاث سور: هي الصفات، المرسلات والنازعات وذلك للدلالة على أنهم عباد لله، لا يعصونه ما أمرهم، وليسوا بآلهة فيعبدون (42) كما كان شاعرا آنذاك من أن الملائكة بنات الله، أي أن القسم كان لمحض الاستدلال فلا يمكن أن يدور في خلد إنسان عاقل أن يجعل الله مخلوقاته موضع المعبود المقدس، ذلك أن " القسم بالمصنوعات يستلزم القسم بالصانع لأن ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل، إذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل (43)".

1-2-3 - القسم بالظواهر الكونية والطبيعية :

ورد هذا النوع من القسم في مواطن كثيرة حيث أقسم الله سبحانه وتعالى

فهو أشد إثارة للاهتمام، لاسيما وأن النفي سابق للقسم " لا أقسم " وبذلك فهو يحمل إيحاء بأنه (النفي) المقصود أساسا. كما يفهم من هذا النفي أن الذات الإلهية لا تحتاج للقسم على صدق الرسول ﷺ بما يصير الناس وما لا يصرون، كما يرى أن في هذا القسم تكريما للإنسان باعتبار أن القسم مظهر من مظاهر الاهتمام بالقسم به فهو " يلحظ واقع الإنسان من زاوية العجز وقلة الحيلة، اللتين تنبه إليهما الآية الثانية خاصة : وما لا تبصرون (38)" ففي هذا القسم إشعار بمحدودية الاستطاعة الإنسانية مهما كانت شدة المحاولة، لأن الإرادة الربانية قررت ذلك، ومن مظاهر هذا العجز وقلة الحيلة أن ثمة مخلوقات لا يستطيع الإنسان أن يراها.

وينتقل الباحث بعدها إلى جواب القسم "إنه لقول رسول كريم" ليحدد وجه دلالته في كون أن القرآن الكريم إنما ينزل به رسول من الملائكة - جبريل عليه السلام - كريم على رسول من البشر كريم، فهذا الرسول من الملائكة (39) : " تنطبق في حقه الآيتان الأوليان : فلا : أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون، إنه باختصار يصره المصطفى ﷺ ولا يصره الآخرون (40)". فنحن هنا أمام

في الأسواق، وينكح النساء؟ يقول تعالى في معنى ما سبق: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٧﴾ الفرقان: ٧، وقد دفعهم هذا الجهل إلى اتهام الرسول عليه السلام - بالكهانة وأن الشياطين توحى إليه، وههنا سر هذا القسم، إذ إن النجم الذي يهوي من السماء، وبذلك يوجه أنظارهم إلى أمر يصرونه جميعا وقد لا يعيرونه أي اهتمام، إنما هي شهب تخر لامعة من السماء، ولا تعدو عن كونها سلاحا يطلقه الله على الشياطين التي تعمل على استراق السمع، والتقاط الوحي، وبفضل هذه الحماية الربانية عُصم النبي - عليه السلام - من إغواء الشياطين وإضلالها. ومن هنا يتضح أمر هذه العلاقة التي تربط المقسم به بالمقسم عليه وتتجلى دلالة القسم في الآيات السابقة⁽⁴⁸⁾. وفي قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣﴾ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴿الطارق: ١ - ٤﴾، فالقسم الوارد في هذه الآية، لا بد أن يحوي معنى الحفظ الموجود في المقسم عليه: "إن كل نفس لما عليها حافظ" والحفظ

بالشمس والقمر والنجوم لما فيها من المنافع، وأن عدم ثباتها على حال إنما يدل على حدوثها، وأن لها خالقا وصانعا مثلما بيّنا من قبل من أن القسم بال مخلوقات يكون إما لفضيلة أو منفعة. وأقسم بالريح والطور (الجلبل المعروف)، وغيرها كالزمان مثل العصر، والضحي والفجر والليل ليتوجه إليها الإنسان بالفكر والنظر⁽⁴⁴⁾، كما نص عليه القرآن الكريم صراحة في قوله - جل جلاله: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَالْأَيْلِ إِذَا يَسِر ۝٤ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ۝٥﴾ الفجر: ١ - ٥ أي: لذي عقل. ومن الآيات التي ورد فيها مثل هذا القسم قوله تعالى: "و النجم إذا هوى ما ضل صاحبكم و ما غوى"⁽⁴⁶⁾ وقد يتساءل البعض عن علاقة القسم بالمقسم به وهو هنا نفي إضلال النبي ﷺ وغوايته وخروجه عن جادة الصواب.

ولتوضيح هذه العلاقة نشير بداية أن هذه الآيات من سورة مكية تتوجه بالخطاب لقوم يملكون معلومات مشوهة عن الله والملائكة، كما أن قضية الوحي مجهولة تماما لديهم، حتى إنهم لم يستطيعوا هضم ولا تفسير، كيف يكون محمد ﷺ نبيا وهو بشر مثلهم يأكل الطعام ويمشي

يرى صاحب هذا الطرح أن القسم في هذه الآيات قد تحقق في عصرنا، لأنه عصر زاخر بالطبقات التي يمكن للإنسان أن يركبها صعودا ونزولا في الدنيا، أي أن هذه الآيات قد تعنى هذه الأحداث

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالْعَدِيدِ صَبَحًا ۝۱﴾ **فَالْمُورِبَةِ قَدَحًا ۝۲** **فَالْمُغِيرَةِ صَبَحًا**

وإغارتها⁽⁵⁵⁾."

1-2-5 - باقي الأمور المقسم بها :

ومما أقسم به سبحانه القلم، في قوله جل جلاله: ﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ **القلم: ١** وليس هذا غريبا على كتاب أول ما نزل منه يحث على القراءة وطلب العلم، والقلم أهم وسيلة في هذا الميدان. وفي هذا القسم دلالة قاطعة على المكانة الراقية التي يحظى بها العلم والعلماء في هذا الدين، فالقسم لا يكون - كما علمنا - إلا بالمعظم والجليل ذي الفضيلة كما أقسم المولى عز وجل بالطور، وهو كما قال المفسرون الجبل الذي كلم الله بحذائه موسى عليه السلام وأقسم بالتين والبلد والقيامة لمحض الاستدلال كما قال المفسرون.

2- المقسم عليه ودلالته :

يرى الباحثون أن ثمة مناسبة وتجانس وارتباط بين المقسم به والمقسم عليه فالأمر ليس مجرد تنويع في القسم من موضع إلى آخر⁽⁵⁷⁾. وكنا قد أشرنا أثناء حديثنا عن المقسم به إلى العلاقة الرابطة بينه وبين المقسم عليه في بعض المواضع، يقول تعالى: ﴿وَالصُّحُفِ ١﴾ **وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى**

٣ فَأَتَرْنَ بِهِ نَقْعًا ٤ فَوَسَّطَنَ بِهِ جَمْعًا ٥
إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ٦ العاديات:

١ - ٦ وفي قسمه سبحانه وتعالى بالخييل شرف لها، ولا غرو في ذلك، فقد قال فيها المصطفى عليه السلام، في الحديث الذي رواه البخاري: "الخييل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة" ولنا أن نسأل: أي أنواع الخييل شرفها الله بأن أقسم بها؟ لا شك كما توضح الآيات التالية أنها خييل الجهاد في سبيل الله، وليست تلك التي تتخذ للزينة، أو للاعتداء على حرمة الله، والقسم "والعاديات" يرشد إلى أسرعها عدوا وعلى هذا معنى الآية: أقسم بخييل الجهاد في سبيل الله ويصادفنا في جواب القسم لفظة الإنسان التي يكاد يكون المقسم به بكل مشمولاته والذي استغرق نصف السورة، إنما يقع بين يدي الجواب المتعلق بالإنسان، والمدقق في دلالة القسم ههنا يلحظ ثمة مطابقة بين المقسم به والمقسم عليه "فالمقسم عليه هو كنود الإنسان وجحوده بفضله ربه وكفرانه بنعمائه..... وفي ذلك جموح من القلب وعنف في الطبع وشراسة في الخلق وغرور من النفس واقتتان بالقوة وهذه كلها من أوصاف الخييل حين عدوها

الله، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ
النُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ
٧٦ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ الواقعة: ٧٥-٧٧.

3- إثبات نبوة الرسول ﷺ، نحو قوله
عز وجل: ﴿يَس ١ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ٢
إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣﴾ يس: ١-٣.

4- وقوع الجزاء، ووعد المتقين،
ووعيد الجاحدين، ونفي الصفات المشينة
التي اتهم بها المشركون محمدا ﷺ، نحو:
﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ١ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ
بِمَجْنُونٍ ٢﴾ القلم: ١-٢.

3- إحصاء وتحليل القسم القرآني
الصريح:

سنحاول فيما تبقى استنطاق لغة
الأرقام بشأن القسم القرآني، فللأرقام
دلالته، فمن خلال معرفة مثلاً عدد
المرات التي ورد فيها القسم في القرآن
المكي نفهم السبب وتتضح الدلالة. وقد
قمنا باعتماد جميع الأقسام الواردة في
القرآن الكريم، سواء تلك الصادرة من
لده سبحانه وتعالى، أو الجارية على السنة
عباده صادقة كانت أو كاذبة وعلى هذا
الأساس وجدنا أن مجموعته ثلاثة وسبعين
قسماً وارداً في ست وخمسين سورة وقد

٢ ﴿مَآودَعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ الضحى: ١-٣
يقول صاحب الإتيان عن مطابقة المقسم
به للمقسم عليه: "وتأمل مطابقة القسم،
وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام
الليل، المقسم عليه، وهو نور الوحي
الذي وافاه بعد احتباسه - وافى النبي
عليه السلام - حتى قال أعداؤه: ودع
محمدا ربه، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة
الليل على ضوء الوحي ونوره، بعد ظلمة
احتباسه واحتجابه⁽⁵⁹⁾"، ونجد في المقسم
عليه بالقلم والكتابة تنزيها للنبي عليه
السلام عما يرميه به أعداؤه، وفي هذا
المعنى يقول ابن قيم الجوزية: "و أنت
إذا طابقت بين هذا القسم و المقسم به
وجدته دالاً عليه أظهر دلالة و أبينها، فإن
ما سطر الكاتب بالقلم من أنواع العلوم
التي يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لا
تصدر عن مجنون، ولا تصدر إلا عن عقل
وافر، فكيف يصدر ما جاء به الرسول
من مجنون"⁽⁶⁰⁾. ومما أقسم عليه سبحانه:

1- أصول الإيمان؛ كوحانية الله، كما
في قوله: ﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًا ١ فَالْتَجَرَّتْ زَجْرًا
٢ فَالْتَلَيْتِ ذِكْرًا ٣ إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ ٤﴾
الصفات: ١-٤.

2- إثبات أن القرآن حق وأنه من عند

في ثمانية مواضع في القرآن الكريم.

1- عدد مرات الورد: 73 مرة

- في القرآن المكي: 58 مرة (79 %)
(45)

- في القرآن المدني: 15 مرة (20 %)
(54)

2- حروف القسم:

- الباء: 32 مرة (43،83 %)

- الواو: 33 مرة (20 ، 45 %)

- التاء: 08 مرات (10 % ، 95)

3- المقسم به:

- بذات الله أو صفاته: 41 مرة (56،16 %)

- بمخلوقاته: 32 مرة (43،83 %)

3-1 - تحليل المقسم به:

- الإنسان ومتعلقاته: 03 (09،37 %)

- السماء ومتعلقاتها: 05 (15،62 %)

- الملائكة: 02 (25 ، 06 %)

- المكان: 03 (37 ، 09 %)

- الحيوان: 01 (25 ، 03 %)

- الزمان 9 (12 ، 28 %)

أحصاها واضع " المعجم المفهرس لمواضيع آيات القرآن الكريم " المذيل به " مختصر تفسير الطبري " مروان العطية فوجدها ترد في ثمان وثمانين آية ضمن سبع وعشرين سورة⁽⁶⁵⁾، وذلك لأنه لم يعد من القسم القرآني إلا الصادر من الله سبحانه و تعالى، وأهمل حساب القسم الجاري على ألسنة البشر. أما نحن فقد قمنا باعتبار جملة القسم وحدها آخذين في الحسبان بقول النحاة: من أن الواو الأولى للقسم وسائر الواوات للعطف⁽⁶⁶⁾، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا يَفَتَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ الليل: ١ - ٤ ، أما صاحب المعجم فقد عدّ كل الآيات الوارد فيها القسم مراعاة للمعنى كما نلفت الانتباه أننا أثناء حسابنا لحروف القسم، اعتدنا بالباء المحذوفة وأوردناها في الحساب نظرا لكونها تقدر - كما يقول النحاة- مع فعل القسم الصريح دون غيرها، نحو قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ المجادلة: ١٤ ، أي : يحلفون بالله، وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِسُوءِ عَذَابٍ سَاعَةٍ﴾ الروم: ٥٥ ، والتقدير: يقسم المجرمون بالله، وهذا النوع من الباء المقدر واردة

به الغالب في القرآن الكريم مصدره محيط الإنسان، و محسوساته وما يشاهده من آيات الكون، وفي ذلك من الدلالات ما لا يخفى من دفع إلى التفكير والتدبر والتأمل، ويمكن أن يقال في ذلك إنه : " استهدف العظة والإرشاد والتنبية والتلقين والتدعيم والتأييد⁽⁷⁰⁾" فالقرآن خاطب الناس جميعا على تفاوت عقولهم ومداركهم، والأمور المذكورة أنفا قاسم مشترك بين الجميع.

وإذا انتقلنا إلى الأمور المقسم عليها، نجد أن النسبة العالية تتمحور حول الوعد والوعيد، وليس هذا بدعا على كتاب غايته دفع الناس إلى الإيمان بالله، والإقلاع عما هم فيه من ضلال وشرك وكفر، فالمقسم عليه أو لأجله هو غاية القسم ومدار الحديث. ومما استأثر حيزا معتبرا من الأمور المقسم عليها، فضح قسم المشركين على أمور كاذبة وهو ما نلاحظه بخاصة في سورة التوبة، حيث ورد فيها خمسة أقسام من هذا القبيل تدور كلها حول قسم المنافقين لأجل خداع المؤمنين. ومن خلال هذا النوع من الأقسام وموازينها مع القسم المقدر الوارد في سورة "المنافقون"، نلاحظ المنحى التطوري لهذه الفئة التي انتقلت من القوة إلى الضعف، حيث

- النبات: 01 (25 ، 03 %)

- القلم: 01 (25 ، 03 %)

- القرآن: 04 (50 ، 12 %)

- الرياح: 02 (25 ، 06 %)

- القيامة: 01 (25 ، 03 %)

4- المقسم عليه: المحذوف: 09

- أصول الإيمان: مثل وحدانية الله: 02 (73 ، 02 %) .

- القرآن حق وأنه من عند الله : 02 (73 ، 02 %) .

- صدق الرسول ﷺ في نبوته، ونفي التهم التي ألصقها به الكفار: 06 (11 ، 08 %) .

- الجزاء، الوعد والوعيد: 24 (35 ، 61 %) .

- فضح قسم المشركين على أمور كاذبة : 16 (71 ، 21 %) .

- مختلفات (غواية إبليس لآدم، قسم المتلاعنين، شهادة الوصية، قسم إخوة يوسف، قسم إبراهيم عليه السلام...): 14 (91 ، 18 %) .

يوضح استنطاق هذه الأرقام أن المقسم

ذو دالتين؛ الزمان أو الدهر - كما قال ابن العباس والذي يشمل حركات الناس وأعمالهم، وهو كذلك الوقت المعروف الذي تحب فيه صلاة العصر. وكانت عادة العرب في جاهليتهم الالتقاء في هذا الوقت المخصوص للتحدث والتذاكر في شئونهم، بعد أن يكونوا قد فرغوا من أعمالهم اليومية، وقد كان في حديثهم من اللجاج والخصومة ما لا يليق، فيؤذون بعضهم فيتوهمون أن هذا الوقت مذموم، و أنه سبب ما يجري بينهم فجاء قسم الله به ليزيل هذا الوهم من أذهانهم، ويبين لهم أن الزمان نفسه ليس فيه ما يذم ويسب لذاته، كما اعتادوا أن يفعلوا، بل هو ظرف يشهد لشؤون الله الجليلة من خلق، و رزق وإعزاز وإذلال وخفض ورفع، فلم يذم لذاته؟.

والقسم هنا واقع بالزمان مطلقاً أو بذلك الوقت المخصوص، وكلاهما تنطبق عليه هذه الأوصاف، فعليهم إذن أن يتوجهوا بالذم إلى أفعالهم الممقوتة لا إلى الزمان الذي حواها. وقد وقع القسم على خسارة الإنسان إلا من استثنى الآيات الكريمة والعلاقة بين المقسم به و المقسم عليه تكمن في كون أعمال الإنسان هي

إن السورة الثانية نزلت في أوائل العهد المدني، في حين أن الأولى نزلت بعد غزوة تبوك؛ يقول تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَ الْأَعْرَضُ مِنهَا الْأَذَلَّ﴾ المنافقون: ٨، ويقول بعدها عن هذه الطائفة: ﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ بِمِنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ التوبة: ٥٦.

4- نماذج من صيغ القسم القرآني :

نحاول ههنا التعرض لبعض النماذج القسمية الواردة في القرآن الكريم لغرض إتمام الحديث عن علاقة المقسم به بالمقسم عليه، من منطلق أن أجزاء القسم وأركانه متكاملة المعنى، كما نشير إلى بعض ما كان سائداً في الجاهلية من مفاهيم خاطئة عن الزمان، أراد القرآن أن يصححها، وينبه إلى موضع الخطأ فيها من خلال القسم بها، لأنه أكثر الأساليب استرعاء للانتباه، ولفتاً للأنظار.

يلاحظ في تلك الأمور المقسم بها، أنها كانت كانت لمحض الاستدلال لا غير، ومن هذه النماذج قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ العصر: ١-٢ أقسم سبحانه وتعالى بالعصر، وهو لفظ

مصدر شقائه لا الزمان ولا المكان (74) ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ۝ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ۝ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَقَ بِالْحَقِّنِ ۝ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝﴾ الليل: ١- ٧ في هذه الآيات يقسم الله بالليل على اختلاف سعي الإنسان، وبخلقه الذكر والأنثى على تعدد أعماله، حيث حذف فعل القسم وعوض " بالواو"، وإضمار الفعل في هذه الآية وفي سائر السور المفتوحة بالقسم يرجع إلى كون الأسلوب القرآني الكريم في أغلبه تصويري، غايته تحقيق الإقناع عن طريق البراهين العقلية والتأثيرات النفسية، وهذا الأسلوب التصويري نلاحظه في القسم الوارد هنا في تشخيص الكون على أنه في حركة دائبة، فالليل يغشى النهار بظلامه فيستره، ويعقبه النهار فيجلي كل شيء ستره الليل فيكشفه، والمخلوقات باختلاف أصنافها في سعي وحركة.

والقسم بالواو أبلغ دلالة من ذكر الفعل وأقوى حجة، خاصة عندما تعدد المقسمات كما هو الحاصل في هذه الآيات، حيث تتابع تتابعاً مألوفاً لا تنافر فيه في صورة فينة مكتملة

ويأتي بعدها جواب القسم مؤكداً بأنّ واللام ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾، وما يلحظ في هذه الآيات هو ذلك التقابل بين الأمور المقسم بها (الليل والنهار وخلق الذكر والأنثى) والتفاوت بين الأمور المقسم عليها (اختلاف سعي الإنسان بين من أعطى ومن بخل واستغنى) وتفاوت الجزء (بين الأشقى والأتقى) فعلى نحو ما يتفاوت الليل إذ يغشى بظلمائه النهار إذا تجلى بضياءه، يتفاوت سعي الناس في الدنيا بين ضلال وهدى (76).

والنموذج الثالث الذي نختم به هذا المبحث قوله- عز وجل ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ۝ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۝﴾ الواقعة: ٧- ٧٩. لقد اختلف في شأن اللام في هذا النوع من القسم، نحو: ﴿لَا أَقْسَمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ البلد: ١ و ﴿لَا أَقْسَمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ القيامة: ١، و ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ وما لا تبصرون﴾ الحاقة: ٣٨ - ٣٩؛ يقول الطبري عن مواقع النجوم، مساقطها ومغايها (81) أما عن " لا " فقليل عنها

القسم بمواقع النجوم، واستعظام الله له، إنه وقت قيام المهجدين والمبتهلين إليه من عباده الصالحين.

5- الأغراض البلاغية للقسم في القرآن الكريم :

ما من أسلوب قرآني إلا وله أغراض بلاغية تتجلى في صياغته؛ فالتدبر في سياق كل جملة قرآنية، لابد أن يلاحظ حكمة ورودها بالأسلوب الذي جاءت به، والمعنى المراد منها تبليغه، والهدف الذي تستهدفه⁽⁸⁶⁾، وكل هذا يتنوع بتنوع المواقف والمضامين. وعلى هذا لنا أن نحصر أغراض القسم البلاغية، بوصفه أسلوباً يرد لتبليغ معنى في موقف معين فيما يلي⁽⁸⁷⁾:

1- يدل القسم على التوكيد والقوة، فقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ﴾ الذاريات: ٢٣، يشعر متذوق اللغة بمتانة إحكام التراص اللفظي في عباراتها المؤكدة بالقسم الصريح بـ "رب" المضافة إلى السماء والأرض، وإتباع القسم "بأن" الثقيلة، و"لام" التوكيد المرحلقة وتعقيها بأن الثقيلة ثانية التي تضيف على العبارة قوة، وتصبغها

إنها نافية ومنفيها قد يكون شيئاً تقدم في سورة أخرى لأن القرآن كله كالسورة الواحدة، ويستدلون على ذلك بأن يذكر الشيء في سورة وجوابه في سورة أخرى، نحو ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ الحجر: ٦، والجواب ورد في قوله: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٌ﴾ القلم: ٢. والرأي الثاني يذهب إلى أن منفي "لا" هو الفعل "أقسم" والمعنى أنه لا يقسم بالشيء إلا إعظاماً له، يتضح من الكلام الذي عُقِبَ به على هذا القسم: "أي إن" إعظامه بالإقسام به كإعظام، أي أنه يستحق إعظاماً فوق ذلك⁽⁸⁴⁾". كما قالوا عنها: إنها زائدة، ورأوا في الفائدة منها رأيين هما: التمهيد والتوطئة لنفي الجواب، كتقديرهم له في قوله تعالى: "لا أقسم بيوم القيامة" هو، لا، أقسم ثم يرد الجواب، والرأي الثاني، أنها لمجرد التوكيد وتقوية الكلام وكون التوكيد بها في أول الكلام يفيد الاعتناء به. والدليل على أنها زائدة للتوكيد وقوعها بين الفاء و معطوفها⁽⁸⁵⁾. وقال المفسرون عن علة

موجزة، وإن دلت على أمر واحد فمن جهات مختلفة، وهو ما يلاحظ في الأقسام الواردة في سور: الطور والبلد والتين، يقول تعالى: ﴿وَالْطُّورِ ١﴾ وَكُنْتَ مَسْطُورًا ٢ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤ وَالسَّافِرِ الْفَرُوعِ ٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿الطور: ١ - ٧.﴾

4- يكسب القسم مطالع السور رونقا ودياجة، ولعله من أصلح أساليب الكلام تصويرا، لذا وُثِّقَ السور المفتحة بها بألوان الصور كالقلم الكاتب والنجم الثاقب والخيال العاديات. ونجد فيه صورا عديدة يضمها أمر جامع بينها كالتين والزيتون وطور السنين⁽⁹³⁾.

وللقارئ المتدبر أن يلاحظ أمرا آخر يخص هذه المطالع التي تستهل بالحروف المتقطعة والتي تستغرق ربع السور المكية منها والمدنية، فعادة ما يعقبها ذكر القرآن والكتاب وتنزيله وإحكامه وحكمته إما على شكل قسم أو تنويه أو تنبيه وتهدف كلها إلى توكيد الحقائق واسترعاء الأسماع لما ينزل، ومواطن العبرة والدلالة فيه⁽⁹⁴⁾.

ونخلص من هذا كله إلى أنه يحق لنا أن نعد القسم، باعتباره من مؤكدات

بطابع الصدق والوضوح، وتهز وجدان السامع وتقطع عليه سبيل الإنكار.

2- يقطع القسم على الخصم طريق الإنكار، فالمنكر قد ينكر الجواب لأنه خبر، غير أن الفرصة لا تعطى له لإنكار القسم في ذاته. وفي أحيان أخرى يكفي بالقسم، وتحذف منه جملة الجواب الخبرية، ليبادرهم بكلام آخر مؤيد لما حذف، حتى لا يجد الخصم فرصة لتحويل الإنشاء - جملة القسم - إلى خبر فينازع فيه، وإنما يهجم عليه بما يؤيد الاستدلال المقصود من الكلام السابق؛ ففي قوله تعالى: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقٍ ﴿ص: ١-٢﴾ اكتفى بالقسم، واجتنب الجواب، واستغنى عنه بما ذكر من صفة القسم. أما إذا كان الجواب مما لا ينكره الخصوم، فانه لا يحذفه، ومنه قوله عز وجل: ﴿حَمَّ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُمِينِ ٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿الزخرف: ١-٣﴾ فكونه كتابا، وكونه قرآنا عربيا لا يُنكر منهما شيء⁽⁹¹⁾.

3- الإيجاز للاستدلال، حيث انه بالإمكان جمع عدة دلائل في عبارات

الإشكاليات كتقدم "لا" في بعض الأقسام القرآنية على فعل القسم الصريح، وحذفها كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَأَلَّوْا تَقْتُلُوا﴾ **تَذَكَّرْ يُوسُفُ** يوسف: ٨٥، ودلالات الزيادة والحذف في كل منهما.

كما يلاحظ أيضا غلبة القسم المقدر على القسم الصريح في القرآن الكريم، ومن النقاط التي لم نجد لها إجابة هو أن الجملة القسمية عموما من مؤكدات الخبر، أي من أساليب التوكيد، بمعنى أنها جملة خبرية، ومع ذلك عندما نرجع إلى كتب البلاغة نجد القسم مصنفا ضمن الإنشاء غير الطلبي، بل إن القسم الاستعطافي بجمليته إنشائي محض، والتساؤل المطروح هو: كيف يكون للجملة الواحدة اعتباران في الآن نفسه؟ وعلماء اللغة يقولون، والمنطق وتحكيم العقلي يؤكدان أن احتمال أي اعتبار منهما يحجب الثاني، وبتعبير آخر كيف تكون الجملة إنشائية وخبرية في الوقت ذاته؟.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين.

ملاحظة: للموضوع هوامش

الخبر وسيلة من الوسائل التدعيمية والتأييدية كالقصص القرآني، والأمثال، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، والتنديد، والجدل، والحجاج والأخذ والرد والتذكير والبرهنة ولفت الانتباه إلى نواميس الكون، ومشاهد عظمة الله التي تخدم أسس الرسالة القرآنية المتمثلة في المبادئ والقواعد والشرائع والأحكام، كوحداية الله وتنزهه عن كل شائبة وشريك وولد، واتصافه بجميع صفات الكمال، ومطلق التصرف، واستحقاقه العبادة وحده، والقيام بسائر الواجبات التعبدية تقربا إليه⁽⁹⁵⁾.

وخاتمة الكلام هو أن القسم في القرآن الكريم موضوع مثير للتساؤلات الكثيرة، والبحث فيه محفوف بالمخاطر لأنه خوض في كلام الله، لذا قمنا بجمع الدلالات التي قال بها العلماء والمفسرون، وخاصة ما تعلق منها بقسم الله سبحانه وتعالى بمخلوقاته، فكل من أدلى بدلوه في هذه القضية كانت مرجعيته أنه أمر اختصه الله لنفسه، وما دوره إلا البحث عن مواطن العبرة، ومواضع الحكمة فيما أقسم الله به، ومما خرجنا به كذلك كثرة الاختلافات في أمر القسم، واحتدام الجدل حول بعض